التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنكولن

قصة الانحراج الى عالم الحرية

للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادى ! خذوا معانى العظمة فى نسقها الأعلى من سيرة هذا العصامى العظيم ... ...

- ٢٧ -

ولقد كانت هذه السنة الثانية للحرب أسوأ الأيام التى مرت بالرئيس طيلة حياته . وأى شئ أشد سوءا من الهزيمة والخذلان ؟ وإن الرئيس ليخشى أن تنحل العزائم وتخور القوى وبخاصة حين أحس الناس أن الحرب لا بد أن يطول أمدها ويشتد سعيرها . وها هو ذا تهامس الأمهات بدأ يصل إلى مسمعيه . وليته كان تهامس الأمهات فحسب ، فان كثيراً من الرجال قد أخذوا يبدون تململهم وتذمرهم ويعلنون عن رغبتهم فى وضع حد لهذه المحنة القومية ...

وكان مما يكرب الرئيس ويوجع نفسه أن كثيراً من الناس كانوا يلومونه ويرجعون سبب الهزائم إليه ؛ ويتقولون فى ذلك عما كان يفعل قواده وعلى الأخص ماكليلان ، ذلك الذى كانت محبته والثقة به إحدى خطايا الجماعات

رجحت كفة الجنوبيين فى البر ولكنهم فى البحر كانوا أذلة ؛ ذلك أنهم لم يكن لهم مثل ما كان لأعدائهم من البارجات المواخر فيه ؛ ولقد استطاع أحد القواد البحريين وهو فَرَّاجت أن يسير فى تلك السنة بسفنه إلى نيوأورليانز فيصليها من ناره ويأخذها عنوة ، وكان انتصاره هذا وإذلاله أهل الجنوب على هذا النحو مما خفف على الشماليين بعض ما كانوا يلاقونه فى البر من هوان وذلة ... ولسوف تكون تلك القوة البحرية فى النهاية عاملا من أهم عوامل النصر ، الأمر الذى لم يفطن إليه أهل الجنوب إلا بعد فوات الفرصة ...

* * *

وبينما كانت الحرب تتأجج نارها ويتفجر بركانها ، وتتوائب فى البر والبحر شياطينها ، كان الرئيس يفكر فى أمر هو أعظم ما فكر فيه من الأمر ... ولقد كان من أجل مواهبه أنه كان يتبين الأمور على حقيقتها مهما التوت عليه سبلها واختلطت وشائجها ، وهو فى ذلك ياتى بنظره فيتبين حقيقة موقفه وموقف أعدائه ثم يسدد خطاه على هدى مما رأى دون أن تفوته صغيرة أو كبيرة مما تقع عليه عيناه ...

وتبين الرئيس موقفه فأخذ يتحفز ويستجمع قواه ليقدم ، ثم عزم وصمم فليس من الاقدام بد ؛ وليس لما عسى أن يلقى من المعارضة أى وزن عنده ... ومتى عقد ابراهام النية على أمر ثم تخاذل عنه أو تهاون فى العمل على إنفاذه ..؟

صمم الرئيس أن يضرب الضربة التى طالما انتظر أن تواتيه لها الفرصة ... أجل ، أراد الرئيس اليوم أن يضمن تاريخ البلاد ، بل وتاريخ الانسانية ، أجل عمل قام به ألا وهو تحرير العبيد ! وإنه لن يحجم اليوم أن يعلن رسمياً وفى مجال واسع ما سبقه إليه فريمونت وهنتر ، ولن يتردد أن يأخذ بما رفض من قبل مهما يكن من الغرابة فى موقفه ، ولكن أية غرابة وهو كفيل أن يوضح للناس قضيته وأن يحملهم على قبول حجته ؟

الحق أن الرئيس لم يغفل يوماً عن مسألة العبيد ، ولم ينس ذلك النظام المنكر البغيض الذى نشأ على مقته وازدرائه والذى ظل يتمنى أن تنجو البلاد من آثامه .. ولكنه كان يحرص ألا تفسد مسألة العبيد عليه قضية الحرب ، ولقد كان محور تلك القضية كما مر بنا المحافظة على الوحدة ؛ فلما رأى تحرير العبيد قد أصبح عاملاً من عوامل نصرة تلك القضية وعنصراً من عناصر نجاحها ، لم يتردد ولم يخف ومضى قدماً إلى غايته ...

وكان الرئيس قد خطا خطوة فى هذه المسألة فى أوائل السنة الثانية من سنى رياسته (٦ مارس سنة ١٨٦٢) وذلك أنه أرسل إلى المجلس التشريعى مقترحاً أن يصدر المجلس قراراً به تعوض الولايات التى تقضى على نظام العبيد فيها تدريجياً تعويضاً مادياً عادلاً ، وأصدر المجلس ذلك القرار ولكن الولايات الحايدة عارضته وزهدت فيه وهى المقصودة قبل غيرها به ... ودعا الرئيس ممثليها وحاول إقناعهم ولكنهم لم يقتنعوا فنبت الفكرة بالفشل ولم يفد

الرئيس منها إلا أنه تعرض لنقد هـذه الولايات ولومها ثم للوم دعاة التحرير من جهة أخرى لأنهم رأوا فى الفكرة ترددا وتقاعدا وهم يريدون التحرير العاجل فى غير تحفظ أو تراجع .

وكان الرئيس لا يزال يقلب الأمر على وجوهه فهو يخشى من التحرير العاجل الشامل أن يغضب الولايات الحايدة فتنضم إلى الاتحاد الجنوبى، وكان بعد ذلك، والحرب قائمة، كارثة ؛ ثم هو يخاف أن يتهم أنه ما أثار هـذه الحرب الضروس إلا من أجل نظام العبيد مع أن الدستور يقر ذلك النظام .

وهو فى الوقت نفسه يرى أن تحرير العبيد سوف يدعوهم إلى التمرد على ساداتهم فى الجنوب فتضعف شوكتهم ، هذا إلى رفضهم العمل فى فلاحة الارض بعد ذلك فيضطر البيض إلى العمل مكانهم فتتضاءل جيوشهم وتضعف مواردهم، فضلاً عن أن التحرير من شأنه أن يكسب الرئيس وحكومته عطف الدول المتمدنة فى أوروبا قلا تناوئه وهو فوق ذلك جميعاً يقضى على ذلك النظام البغيض الذى تنفر منه الانسانية وتستخذى له ، والذى مافتىء الرئيس ينتظر يوم الخلاص منه ...

ولكن يبقى بعد ذلك حكم الدستور فى الأمر ، فالدستور يقر امتلاك العبيد، وإذا أقدم الرئيس على التحرير خرج بذلك على الدستور وهو الحريص على مبادئه السامية منذ اشتغاله بالسياسة على المحافظة عليه وتقديسه ... على أنه يجد مخرجاً من ذلك فالمسألة تدعو إليها ضرورة حربية وهو مستطيع أن يحمل الممثلين بسهولة على تعديل الدستور فى هذه النقطة ...

بذلك لا يعوز الرئيس إلا الفرصة المناسبة وقد لبث يترقبها... ولهذا كان يرفض أن يشايع دعاة التحرير قبل أن تحين الساعة فلا عجب أن يرفض فى مايو من تلك السنة ما قاله القائد هنتر ولكن ليقوله هو بعد حين ...

لبث الرئيس يترقب الفرصة ، وكانت البلاد يتزايد فيها الشعور بضرورة القضاء على العبودية ، ويتجلى ذلك الشعور فى تلك العبارة التى كتبها قبل ذلك بنحو ثمانية شهور أحد الكتاب المؤرخين والتى جاء فيها « إن هذه الحرب الأهلية هى الأداة التى سخرها الله لاقتلاع جذور العبودية ، وإن أعقابنا سوف لا يرضون بنتيجتها إلا إذا كان مما تحدثه الحرب ازدياد عدد الولايات الحرة هذا هو ما يتوقعه الجميع وهـذا هو الأمل الذى ينشده جميع الأحزاب »

وكانت أولى الخطوات العملية التى جاءت مظهراً لهذا الشعور أن أصدر المجلس فى ابريل قراراً بالتحرير العاجل فى العاصمة وما حولها ؛ ولما وقع لنكولن على هذا القرار قال : « عندما تقدمت باقتراح إلى المجلس عام ١٨٤٩ للقضاء على العبودية فى هذه العاصمة ولم أكد أجد من يستمع إلى ذلك الاقتراح ، لم أكن أحلم أنه سوف يتحقق بمثل هذه السرعة »

ولقد كان هذا القرار بمثابة مقدمة لما سيتلوه فى القريب من تحرير شامل عاجل للعبيد فى الولايات جميعاً ، ذلك العمل الذى سوف يضاف إلى تراث الانسانية ويعد من مآثر البشرية فى هذا الوجود

وكان على ممثلى الولايات المحايدة ، تلك الولايات الوسطى أن تعتبر بما جاء فى هذا القرار ، لكنهم ظلوا على عنادهم على الرغم من أن الرئيس قد دعاهم إلى مؤتمر آخر فى يوليو سرد لهم فيه وجهة نظره وأطلعهم على حججه

أخذ الرئيس يتحين الفرصة ولكن الموقف الحربى فى صيف ذلك العام كان على مابينا من حرج وشدة ، فالقائد ما كليلان فى زحفه على رتشموند متلكئ متردد ، ولقد تراجع فى يوليو تراجعاً مهيناً مخجلا وإنه ليرفع عقيرته بالسخط على رجال الحكومة فى العاصمة كما أسلفنا ، الأمر الذى تألم له الرئيس أشد الألم ووقع منه فى نفسه شديدة وحيرة

وأراد الرئيس أن يفرج عن نفسه فيعلن التحرير فى تلك الآونة ، ولكن سيوارد أشار عليه أن يتريث ويرجئ المسألة إلى حين ، فانه إن فعل اليوم وأعلن التحرير بعد ذلك منه ضرباً من اليأس وهو مهزوم مستضعف ... ورأى الرئيس وجاهة رأى صاحبه فآثر التريث والصبر قائلا: إن التحرير معناه ومئذ « آخر صرخة فى الهروب »

وأخـذت الأصوات ترتفع من كل جانب بمطالبة الرئيس باعلان قرار التحرير ، ومن ذلك ما جاء فى جريدة نيويورك تريبيون على لسان محررها جريلى وهو ذلك الصحافى العظيم الذى كانت تربطه بالرئيس صلة منذ بدأ يعظم شأنه فى الحزب الجمهورى .

كتب جريلى فى عبارة صارمة يأخذ على الرئيس تردده ويطلب إليه فى لهجة أقرب إلى الأمر منها إلى الرجاء أن يعلن تحرير العبيد. ولقد عجب الناس حين رأوا الرئيس يرد بنفسه فى الصحيفة على محررها ومما جاء فى رده قوله « إذا كان هناك من لا يحافظون على الوحدة إلا أن يحافظوا على نظام العبيد فانى لست معهم ، وإذا كان هناك من لا يحافظون على الوحدة إلا أن يقضوا على نظام العبيد فانى لست معهم ! إن غرضى الأسمى هو أن أحفظ الاتحاد وليس هو أن أحفظ أو أقضى على العبودية . فاذا تسنى لى أن أنقذ الاتحاد دون أن أحرر عبدا واحدا فعلت ذلك ، وإذا كان فى وسعى أن أنقذه بتحرير جميع العبيد فعلت ذلك ... وإذا استطعت أن أحافظ عليه بتحرير بعض العبيد وترك البعض فعلت ذلك أيضاً ...»

وكان جيش الجنوبيين يزحف على وشنجطون بقيادة لى وقد عبر نهر بوتوماك ونزل فى ولاية مارى لند، وأسقط فى يد الشماليين وبانت عاصمتهم فى ذعر وهلع . . . وحزن الرئيس وضاق صدره بما كيلان وأقسم لئن ارتد العدو ولحقت به الهزيمة ليعلنن قرار التحرير إثر ذلك

وأخيراً التحم الجيشان فى سبتمبر: جيش لى وجيش ماكيلان وارتد الجنوبيون عقب معركة أنتيتام التى أشرنا إليها وكان تراجعهم فى اليوم السابع عشر من الشهر

وفى اليوم الثانى والعشرين من هذا الشهر دعا الرئيس مجلس الوزراء إلى الاجتماع عنده ، ولم يكن أحد من الوزراء يعلم الغرض من هذا الاجتماع، ولما اكتمل جمعهم فتح الرئيس كتاباً كان يقرأ فيه ، وأخذ يقرأ فى صوت جهورى قصة فيه أعجبته وهو يضحك والوزراء يضحكون ويعجبون إلا أحدهم وهو ستانتون فكان يضيق بكثير مما يفعل الرئيس ويما يأتيه من ضروب [illegible] وهو لا يدرى أن مثل هذا الرجل فى تلك الشدائد أحوج ما يكون إلى أن يروه عن نفسه ويخفف عنها بعض ما بها ... وإلا فكيف يستطيع أن ينهض بذلك الحمل الذي تنوء به الجبال ؟ وكثيراً ما يكون ضحك بنى الانسان مغالبة منهم لما يجيش فى نفوسهم مما يصبه الدهر عليهم من آلام وخداعاً منهم لأنفسهم عما بها ولو ساعة أو بعض ساعة

ولما فرغ الرئيس من تلاوة القصة غامت أسارير وجهه وبدت عليه أمارات الجد ودلائل الاهتمام والحزم ، فأخرج من جيبه ورقاً طويلاً كتبه بخط يده وتلاه على الأعضاء فاذا هو قرار التحرير

أعلن الرئيس أن العبيد فى جميع الولايات بعد اليوم الأول من السنة الجديدة أحرار وأن الحكومة ستعترف بحريتهم وتساعدهم على بلوغها وأنها ستقوم بتعويض الولايات الموالية عما تطلقهم من العبيد . . . وبهذا الاعلان ضرب نظام العبودية ضربة سوف تكون القاضية عليه ، وبه تحقق حلم طالما منى الرئيس به نفسه ، ورأى ذلك النجار — الذى وقف فى صدر شبابه مرة فى مدينة أورليانز يشهد سوق العبيد — نفسه يقضى على ذلك النظام فيعلن باسم حكومة هو رئيسها أن عبودية بعد اليوم المحدد وأن الشعب الأمريكى جميعه شعب حر ، وأن أمريكا دولة حرة وأمة حرة

أعلن الرئيس كلمته وأدى رسالته، وشهد ابن النابة اليوم الذى يقف فيه موقف الآمر الذى ينطق باسم شعب فى أمر طالما شغل باله وبال الأحرار فى ذلك الشعب ، ورأى العالم نوعاً جديداً من الحركات الكبرى تؤثر فى تاريخه وتضاف إلى سجله ، حركة من تلك الحركات التى تنقل تاريخ الشعوب من فصل إلى فصل

وهزت البلاد من أعماقها فرحة عظيمة ، وراح الناس يعلنون عن ابتهاجهم بالزينات ينصبونها والليالى يقيمونها ويملأونها بأفراحهم واحتفالاتهم ومظاهر حبورهم

وانهالت على الرئيس رسائل التهنئة والاعجاب يحملها البرق والبريد من أمريكا ومن خارج أمريكا ... فلقد تلفتت أوربا تنظر ما تفعله الدنيا الجديدة للمرة الثانية من أجل الحرية ، فهذه الدنيا التى ولدت الديمقراطية فى القرن الماضى تئد العبودية فى هذا القرن وتضع اسم رجلها وهدية أحراجها لتكون إلى جانب اسم بطلها ومحررها وشنجطون الذى انتزع لها استقلالها بحد السيف من الغاصبين من أعدائها

والرئيس صامت لا يعرف البطر كما لا يعرف الخور ؛ يتلقى تهانى المهنئين وكلمات المعجبين بحزمه فى سكون وتواضع ، وإنه ليحس ألا يزال بينه وبين يوم الراحة جهاد وجلاد يرى مظهرها تلك الحرب التى ما فتىء يتزايد سعيرها ...

« يتبع » الخفيف